كشف القناع

للكاتبة القصصية كاترين مانسفيلد

١٨٨٨ - ١٩٢٣

ترجمة الدكتور زاخر غبريال

أيمكن أن تتسلل الكآبة الى عين انسان من بين نسمات هذا الصباح المشرق الجميل ؟؟ كل عين - هكذا سبح الخيال بادنا - تشرق بالبهجة ماعدا عينيها ، وانفرجت أمام ناظريها نوافذ كل بيت فى المدينة عن آخرها ، وتهادى اليها من كل نافذة غناء أوتار قيثارة ، وامتدت الأيدى تتعانق ، ثم ينفرط عقدها ، واهتزت أشجار الحدائق تحت أشعة الشمس الدافئة ، نشدى بأزهار الربيع ، وتهامس الصغار فى الشوارع صغيرا ، وتردد فى الأفق نباح الكلاب ، بينما الناس يروحون ويغدون ... خطى سريعة خفيفة . يخيل للرائى ، أنها بعد لحظات ستطلق قفزا وعدوا .

ربما لم يكن فى ذلك الوقت انسان فى الوجود يحمل همما ، حتى **ادنا** نفسها ، لم تكن تسة الى الدرجة التى كانت تشعر بها ، **وهل من السهل على المرء أن يشعر بالتعاسة ، وهو لم يتجاوز من العمر ثمانية عشر ربيعا ؟** وعلى الأخص اذا كان فى مثل ما حظيت به **ادنا** من جمال ، وما انطلق فى خديها وشفتيها وعينيها من صحة وشباب ونضارة !! يزينها جميعا جلباب أزرق فرنسى الطراز ، سارت تخطر فيه ، وقبعة تتوهج بزهور العنبر ، ولم يكن ليقلل من تلك البهجة التى لفتها بغلالة مشرقة ، ما انبعث من كآبة من كتاب حملته فى يدها ، يضمه ضفتان سوداوان من الجلد ، فقد كانت هذه الكآبة وليدة الصدفة ليس الا ، لقد كانت ضفتاه من صنع مكتبة الجامعة ، التى اتخذت منها ادنا مبررا للخروج من المنزل ، لتفكر مليا فى حياتها ، وتتدبر موقفها وتحزم رأيها فى أمر ما .

وفجأة ودون سابق انذار ، حدث

للأسف ما لم يكن فى الحسبان ، فبينما هى جالسة فى المسرح ، جنبا الى جنب مع **جيمى** ، وقد مدت اليه يدها بعلبة حلوى ، ليأخذ منها مايشاء ، بعد أن التهمت هى قطعة منها ، فى هذه اللحظة الحاسمة ، خفق قلبها بحب أحد الممثلين ، لقد خفق قلبها بحب .

شعور لم تكن لتحلم به من قبل ،

ولم يكن شعورا لذيذا ، ولم يكن شعورا يبعث فى القلب نشوة ، الا اذا راق لنا أن نعتبر الحب بلا رجاء واليأس والمرارة والتعاسة ، من أحاسيس النشوة ، ثم هاهو ذا شعور آخر قد أخذ يدب فى قلبها ... لو أن ذلك الممثل قابلها على قارعة الطريق ، فى الوقت الذى يبحث فيه جيمى عن عربة تقلهما الى منزلهما ، فانها لن تتردد ، عند أول اشارة أو ايماءة منه ، فى أن تتبعه ، ودون أن تلقى بالا الى جيمى أو أبيها أو أمها أو حياتها العائلية السعيدة وأصدقائها الكثيرين ، لن تتردد فى أن تتبعه الى أية بقعة من بقاع الارض .

لقد بدأت التمثيلية بداية طيبة ، يشيع فيها المرح والبهجة ، كان ذلك فى الفترة التى تناولت فيها قطعة الحلوى ، ثم أصيب البطل بفقد بصره ، فكانت لحظة رهيبة !! بكت ادنا كثيرا ، واستعانت بمنديل جيمى لتهدئة مشاعرها ، لا لأنها كانت تخشى البكاء ، فالجميع من حولها يجهشون بالبكاء ، حتى الرجال منهم ، أخذت أنوفهم ترسل ـ لفرط البكاء ـ صفيرا مزعجا ، وهم يحاولون اخفاء عيونهم وراء أيديهم ، بدل أن يتطلعوا بها الى مايجرى على المسرح ، وأما جيمى فلم تكتمل ـ لحسن الحظ ـ عيناه بدمع ، مما جعل من السهل عليه أن يعيرها منديله ، وقد أخذ يضغط على يدها ، وهو يهمس لها « خففى عنك يا عزيزتى » ، وفى تلك اللحظة تناولت ـ ارضاء له ـ آخر قطعة من الحلوى ، ثم ناولته العلبة مرة أخرى ، ومرت لحظات مروعة ، ظهر فيها البطل وحيدا على المسرح فى وقت الغسق فى غرفة خاوية ، بينما كانت فرقة موسيقية تعزف خارجها ألحانا شجية ، ومن الشارع كانت تسمع عبارات الاعجاب بألحانها ، لقد استطاع البطل بعد جهد جهيد ، أن يجد الطريق الى النافذة ، ثم وقف ويداه ممسكتان بالستارة ، بينما انسكب شعاع ، شعاع واحد ، انسكب فى اشراقة على وجهه ، وقد بدا فاقد البصر ، بينما أخذ صوت الموسيقى يتلاشى شيئا فشيئا ، وهو يتباعد عن المكان .

لقد كان ذلك ـ حقا ... لقد كان قطعا ـ أوه ، لقد كان أعظم ـ **كان مجرد** ـ لقد بدأت ادنا تدرك حقا منذ تلك اللحظة ، أن الحياة لا يمكن أن تسير على نمط واحد ، سحبت يدها من بين يدى جيمى ، ثم أسندت رأسها الى الوراء ، وأقفلت ـ الى الأبد ـ علبة الحلوى ، كان ذلك معناه أن الحب قد فتح ـ آخر الأمر ـ باب قلبها .

لقد ظلت ادنا وجيمى خطيبين لمدة عام ، ولكنهما كانا يعلمان أنهما سيصبحان ، فى يوم من الأيام ، زوجين منذ أن **وطأت** أقدامهما أرض الحدائق ، وهما لما يزالا برعمين صغيرين ، تحت رعاية مربيتهما ، يتوسدان العشب ويأكلان الحلوى معا ، ولقد عرف الجميع ذلك ، ولذ لادنا أن تطوق أصبعها طول حياتهما المدرسية بخاتم يبدو كأنه خاتم خطوبة ، وظل كل منهما وفيا للآخر حتى هذه اللحظة .

كل ذلك أصبح الآن عند ادنا فى عداد الذكريات ، ولكن جيمى لم يساوره نفس الشعور ، الأمر الذى أذهل ادنا ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة حزينة ، حين عرجت على حدائق دير « القلب المقدس » ، وساقتها قدماها الى

طريق يتوسطها ، ألم يكن من الأفضل لجيمى أن يعرف ذلك الآن بدل أن يعرفه بعد الزواج ، فقد يمكنه الآن أن يجتاز هذه المحنة ... لا ... لا داعى للخداع ... لن يمكنه أن يجتـــازها ... ان حياته لا شك حطام ، ولكنه كان شابا ، هكذا يقول النـــاس ... هكذا يقول الزمن ... ربما يستطيع الزمن أن يفعل شيئا ، ولكن ذلك لن يكون الا ضعيفا ... ربما فى المستقبل ، حـــين يحث الزمن به الخطى ، فيطوى من العـــمر أربعين عاما ، ربما يمكنه أن ينظر للأمر نظرة متزنة هادئة ، وأما هى ... فماذا يخبىء لها المستقبل فى ثناياه ؟؟

وصلت ادنا الآن الى نهاية الطريق ، وهناك تحت شجرة بدأت بعض أوراقها الخضراء تشق طريقها الى الحياة ، وتدلى من فروعها بعض باقات صغيرة من زهور بيضاء ، هناك أخذت لهـــا مكانا فوق مقعد صغير ، ثم أخذت تسرح الطرف الى الدير ، واستهواها منظر الحمام يداعب بعضه بعضا ، بينما استطاعت أذناها أن تتصيدا آهات راهبة من راهبات الدير ، وهى تقوم بدرس فى الغناء : «يا اسفاه» قالت الأخت أجنس ، ثم أخذت آهتها تتردد بين جنبات الدير .

اذا لم تتزوج ادنا بجيمى فلن تتزوج أبدا ، أما ذلك الرجل الذى خفق قلبها بحبه ، ذلك الممثل الذائع الصيت ، فقد أدركت ادنا بفطنتها أنه لن يكون لها ، شعور غريب ، فلم تكن هى نفسها راغبة فى ذلك ، لقد كان حبهـــا أقـــوى من الزواج ، وكان عليهـــا أن تخوضه فى صمت ... كان عليهـــا أن تتعذب ، هكذا صور لها الخيال .

« ولكن ... ألا يمكن يا ادنا » هكذا صاح جيمى ، ألا يمكن أن تعد لى ... أما من أمل ؟؟ » .

أى ألم كان يعتصر قلبها حين وجدت نفسها وجها لوجه أمام الواقع ، لقد كان عليها أن تقولهـــا صريحة ، أن تقول « لا » .

وأحنت ادنا رأسها ، وسقطت فوق حجرها زهرة صغيرة ، وسمعت صوت الأخت أجنس تقول « أواه ... كلا » وترددت أصداء الآهة بين جنبات الدير .

فى تلك اللحظة انكشف القنـــاع عن المستقبل أمامها ، مثل كل شىء أمـــام عينيها ... أذهلتها المفاجأة ... أخذت أنفاسها تضطرب ... ولكن لم ؟؟ أى غبار على ذلك ؟ سوف تدخل الدير ... لقد بذل والداها ما بذلا ليقصياها عنه ، وجيمى لا يطيق مجرد التفكير فى ذلك ، لم لا يســـتطيع أحد أن يفهمهـــا ؟؟ لم ينسجون من حولها الآلام؟؟ يا للقسوة!! القســـوه الصـــارخة !! لابد أن تدخل الدير ، بعد أن ينزل الستار على المشهد الأخير ، بعد أن تتخلص من جواهرها وكل ما ملكت يداها ، تلقى بها جميعا الى أصدقائها ، ولكن رويدا... سيشهد ميناء «ولن» آخر أمسيته فى المشهد . عندما تهم الى الدير ، سوف تبعث اليه بشخص غريب ، يحمـــل صندوقا مليئا بأزهار بيضاء بلا بطاقة ، بلا اســـم ، لا شىء غير آخر صورة لادنا ، تلفهـــا بمنديل أبيض ، وتكتب أسفلها :

نفضت يدى من العالم ونفض العالم يده منى » .

أخذت ادنا مكانها تحت الأشجار ، وقد أطبق الصمت عليها ، بينما راحت

تطبق بأصابعها على الكتاب الأسود كأنه كتاب صلواتها ، أجل ... ستختار لها اسم الأخت أنجيـــلا ، وها هو شعرها الجميل ، يقص خصلة خصلة ، وجيمى ترى هل نجد السبيل الى ارسال باقة منه اليه ؟؟ غدا ســـوف نسـير الأخت أنجيلا فى عبـــاءة زرقاء من الدير الى المعبد ، ومن المعبد الى الـــدير ، يعصب رأســـها شريط أبيض ، ويختلج فى نظراتها بريق عجيب ، لا يمت الى عالم أرضنا ... بريق فى عينيها الحزينتين ، بريق ابتسامة تحيى بها الاطفال الصغار حين يهرعون اليهـــا ... قديسة !! ستتجاوب أصداء هذه الكلمة حواليها ، وهى تذرع الدهاليز التى انتشرت فيها رائحة الشمع ... قديسة !! وسوف ينصت الزائرون الى القصص التى تحكى عن الراهبة التى يعبق صـــوتها محلقا فوق ماعداه من الأصـــوات ، سوف ينصتون الى قصص تحكى عن جمالها ، شبابها ، مأساة حبها : « هنا ... فى هذه المدينة يعيش رجل ذهبت حياته حطاما ... »

تســـللت نحلة كبـــيرة ، خضبتها الطبيعة بلون ذهبى ، الى نرجسة ... انثنت تلك الزهرة الرقيقة ... أخذت تتمايل ... انتفضت ... وحين ودعتها النحلة وحلقت بعيدا ، تمايلت الزهرة رغم ذلك ، كأنها تشوى ... يا للزهرة السعيدة ... لا تحمل هما !!

نظرت اليها الأخت أنجيلا ، ثم قالت : « لقد أقبل الشتاء » وها هى تسمع ذات أمسية ، وهى مضطجعة فى مقصورتها المقـــرورة ، صرخة ... ربما صـــعدها حيوان ضل سبيله ، فأخذ يتخبط فى الحديقة ... ربما كان قطاة أو حملا أو شيئا من هـــذا القبيل ، تهب الراهبة الأرقة من فراشها ، فى ثياب بيضاء ، ترتعش ولكنها غير وجلة ... تذهب الى الحديقة ، وتأتى بهذا الشىء ، ولكن فى الصباح التالى ، حين يدق الجرس مؤذنا بصلاة الصباح ... اذا بالراهبة تصارع ـ وهى فاقدة الرشـــد ـ حمى عاتية ، لم تســـتطع أن تفيق منهـــا ، وانتهـــى كل شىء فى ثلاثة أيام ... انتهت الطقوس فى المعبد ، ودفنت فى ركن قصى من مدفنة خصصت للراهبات، فلترقد الأخت أنجيلا فى سلام !!

حل المساء ، ها هما اثنان من الناس يتساندان وهما يتقدمان ببطء الى القبر ، ويجثوان أمامه ، ثم يتأوهان : « ابنتنا ... وحيدتنا » ثم ها هو آخر يقبل ، وقد اتشح بثياب سوداء ، فى خطوات بطيئة ، وما أن يصل الى القبر ويرفع قبعته السوداء ، حتى ترى ادنا ـ ويالهول ما ترى ـ شعره وقد وخطه المشيب ... أتت جيمى !! لقد سبق السيف العزل ... ســـبق الســـيف العزل ، ها هى الريح تعبث بالأشجار العارية فى فناء المعبد ، بينما أخذت تنطلق منه صرخة مريرة مروعة .

سقط كتاب ادنا محدثا صوتا عندما ارتطم بالارض ، فهـــبت من مكانهـــا مذعورة ، وقلبهـــا يدق كالمطرقة بين صدرها ... أوه ياعزيزى ... لا ... لم يســـبق السيف العزل ، مازال الأمل بكرا ، والأمر لا يعدو أن يكون مجرد خطأ ... حلم مزعج ما أبشـــع ذلك

الشـــعر الأبيض ! !أيمكن أن تكون قد ارتكبت هذه الحمـــــاقة ؟؟ لا ... لم تفعل ، سبحانك ربى ... يا للسعادة الفياضة ، انها الآن حرة طليقة ... فى ريعان الشباب .. وليس فى الكون من يعرف شيئا عن ذلك السر ، ولازالت فى العمر فسحة لها ولجيمى ، البيت الذى كانا يحلمان به ، يمكنهما الآن أن يبنياه ، وذلك الصبى الصغير وقف ـ وقد شد يديه وراء ظهره ـ يراقبهما وهما يزرعان الورود ، لازال ذلك الصبى أملا لم يمت، وأخته الصغيرة ، ... وعندما وصلت الى أخته الصـغيرة ، مدت يديهـــا فى الفضـــاء ، كأنما تراءى لهـا أن الطفلة الصغيرة ، قادمة اليها على جنح الأثير ، ثم خذت تسرح الطرف الى الحديقة ، الى أغصان الأشجار ، الى تلك الحمائم ... زرقاء تسبح فى ســـماء زرقاء ، والدير بنوافذه الضـــيقة ، أدركت الآن أخيرا ولأول مرة فى حياتهـــا ـ فلم يغمرها مثل هذا الشـــعور من قبل ـ أدركت ما معنى أن يخفق قلب بحـــب ... بحب !!